نسقية القيم في شعر المفضليات بين الالتزام والشذوذ

م. م. هاني نعمة حمزة

أ.د. جنان محمد عبد الجليل

جامعة البصرة – كلية الآداب– قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

دار هذا البحث حول الالتزام بالنسق القيمي السائد متمثلاً بالقيم الإيجابية كالكرم والشجاعة والوفاء إذ افتخرت الأنا الفردية والجماعية بهذا الالتزام وأشادت بإلتزام (الآخر) أيضاً.

لقد واجه الالتزام بالنسق خروجاً عليه فهناك من سار عكسه مما نستشفه من ذم الشعراء للصفات السلبية كالبخل والجبن والغدر، فالبخل صفة سلبية لدى المجتمع الجاهلي يهجو به العرب من اتصف بتلك الصفة السلبية، إذ كانوا يحبون الكرم خاصة أنه كان في العصر الجاهلي وخاصة في أيام القحط فقراء، وكذلك كانت صفة الجبن عندهم من الصفات السلبية إذ كانوا يحببون الشجاعة والبطولة خاصة إذا عرفنا أن العصر الجاهلي عصر حروب وصراعات، وكذلك بالنسبة للغدر إذ كانوا يرونه من الصفات السلبية ويهجون من أتصف بها.

الكلمات المفتاحية : نسقية القيم، شعر المفضليات، الالتزام، الشذوذ .

The Consistency of Values in Al- Mufaddaliyyat Poems between Commitment and Abnormality

Asst. Lecturer. Hani Neama Hamza

Prof. Dr. Jinan Mohammed Abdul Jaleel

Dept. of Arabic, College of Arts ,University of Basrah

Abstract:

This research is about the commitment in the common consistency of values represented by the positive values like: generosity, courage and loyalty. The individual and collective ego was proud of this commitment and praised the commitment of the (other) as well.

The commitment in the consistency faced departure upon it. For instance, there were those who went the opposite .Some Poets dispraise negative qualities such as miserliness, cowardice, and treachery. Miserliness is a negative characteristic of the pre-Islamic society. Arabs satirize people who are carrying this negative feature (characteristic) ; they loved generosity, especially in the pre-Islamic era and more particularly in drought days. Arabs definitely would prefer courage and heroism than cowardice, especially when we knew that the pre-Islamic era was an era of wars and conflicts. Treachery was also one of the negative features, and Arab poets satirized people who are carrying it.

Key words: The consistency of values, Al- Mufaddaliyyat Poems , commitment , abnormality .

المقدمة:

تُعد القيم الإيجابية في العصر الجاهلي كالكرم، والشجاعة والوفاء نسقاً شائعاً، إذ تُسيِّر تلك القيم المجتمع الجاهلي، تؤدي دوراً مباشراً في تحلي الأفراد بتلك القيم، حتى أصبحت من عاداتهم وتقاليدهم، فأخذ الشعراء يتفاخرون بها، أو يقومون بمدح مَنْ تحلى بها، حتى في رثائهم للأحبة لأنهم حاولوا تخليد قيم الميت والتأكيد على أنه مات وهو متمسك بتعاليم النسق القيمي، وقد اخترنا شعر المفضليات لأن جامعها (المفضل الضبي) حرص على انتقاء القصائد التي زخرت بهذه القيم، غير إننا اقتصرنا على قيم الكرم والشجاعة والوفاء لما لها من الحظ الأوفر في اختيارات المفضل لأسباب قد تتعلق بالمخاطبين في ذلك الوقت.

وقد قابل هذا الالتزام شذوذاً وخروجاً وكسراً له فذمَّ الشعراء كل مَنْ لا يتصف بهذه القيم، لذا فالنسق القيمي لم يكن يسير على وتيرة واحدة مما سيتضح من هذه الدراسة.

أولاً: الالتزام بالنسق القيمي

إن أكثر الناس التزموا – في ذلك الوقت – بنسقية القيم الإيجابية فجاءت تصرفاتهم ومعاملاتهم مع الذات والآخر ملتزمة بالنسق وشروطه، وبعبارة أخرى كانت نظرتهم للذات والآخر حسب شروط النسق.

ومن تلك القيم النسقية في المفضليات:

١- نسقية الكرم

يُعد الكرم نسقاً ثقافياً شائعاً في عصر ما قبل الإسلام، إذ ((شكّلت البيئة القاسية، وما تميزت به من جفاف وقحل، وأتساع صحرائها، نفسية العرب، وألزمتهم بتقاليد خاصة، لا يستطيعون عنها حولاً، وصارت لهم على مرّ السنين طبيعة وسجيّة، عرفوا بها بين الناس))[١] أي أنّ قيمة الكرم أصبحت نسقاً يتحكم بتعاملهم مع الآخر المحتاج، إذ ((جعلتهم ينزلون عن مالهم ومتاعهم وطعامهم، لمن يعرفون ومن لا يعرفون، ينفقون ذلك وهم في أمس الحاجة إليه، نفوسهم راضية بذلك، بل يسرون أيما سرور، لأنهم يعتبرون ذلك واجباً مقدساً يقومون بتأديته))[٢].

من هنا أصبح الكرم نسقاً يفخر الشاعر بالتزامه به، كما يمدح من التزم به، وكذلك يهجو من شذَّ عنه، أي أنَّ الكرم أصبح نسقاً على أثرهِ يُقيِّم الشاعر ذاته وذات الآخر فهو (مقياس للذات والآخر) وهذا يتفق مع مقولة فوكو عن النسق من أنه فكر قاصر وقسري، وهو بنية كبرى تهيمن على البشر وعلى الكيفية التي يحيون عليها ومن خلالها يفكرون[٣].

– الأنا ونسق الكرم

من المعروف ان الكرم يُسير أفراد المجتمع ومنهم الشاعر، ((فالإنسان في النسق الثقافي يخضع لمجموعة من المعايير الثقافية السائدة في مجتمعه، وتتحول هذه المعايير من الأنساق الثقافية إلى الانساق الشعرية في صورة قيم، إذ لا يمكن للخطاب أو النص أن يتأسس إلا على أنساق معينة، ذهنية أو نسقية، فالنسق شرط ضروري لإخراج فعل الإنسان الثقافي إلى حيّز الوجود))[٤].

وقيمة الكرم في عصر ما قبل الإسلام تحتل المرتبة الثانية، إذ تأتي بعد قيمة الشجاعة إذ كانت "هناك قيمتان مركزيتان في النظام القبلي هما الكرم والشجاعة، والكرم قيمة سلمية، بينما الشجاعة قيمة حربية، وحولهما يحتكم التصور القبلي للحياة والإنسان، فالأنبل هو الأكرم وهو الأشجع، ولا تقوم الحياة القبلية إلا بهاتين القيمتين"[٥].

من هنا ندرك مدى تلاعب النسق بالشعراء وتحكمه بهم ((فالكرم عُرُف جاهلي، له صفة الوجوب القانوني أو يكاد، ولا ينبغي لامرئ ان يخرج عليه، وإلاّ ذُمَّ وشُهِّر به، وأمسى مضرب المثل في البخل والشّحّ، وسوء الأحدوثة))[٦]. ولهذا نرى الكثير من شعراء المفضليات يفتخرون بكرمهم، من ذلك قول عمرو بن الأهتم[*][٧]:

ومُستنبحٍ بعد الهُدوءِ دعوتُهُ	**وقد حان من نجم الشِّتاء خُفُوقُ**
يُعالجُ عرنيناً من اللَّيل بارداً	**تلُفُّ رياحٌ ثوبهُ وبروقُ**
تألَّقُ في عينٍ من المُزنِ وادقٍ	**له هيدبٌ داني السَّحابِ دفوقُ**
أَضفتُ فلم أُفحش عليه ولم أَقُل	**لأَحرمهُ: إنَّ المكان مضيقُ**
فقلتُ له: أَهلاً وسهلاً ومرحباً	**فهذا صبوحٌ راهنٌ وصديقُ**
وقمتُ إلى البركِ الهواجد فاتَّقت	**مقاحيدُ كومٌ كالمجادل روقُ**
بإدماءَ مرباعِ النِّتاج كأنَّها	**إذا عرضت دون العشارِ فنيقُ**
فباتَ لنا منها وللضَّيفَ موهناً	**شواءٌ سمينٌ زاهقٌ وغبوقُ**
وبات له دون الصَّبا وهي قرَّةٌ	**لحافٌ ومصقولُ الكساءِ رقيقُ**

إذ تفتخر الذات بسيرها على النسق الكرمي وأغاثتها الفقير أثناء الليل كما في قوله: " ومستنبح، يعالج عرنيناً من الليل ...، أضفت فلم أفحش ...، فقلت له أهلاً وسهلاً ...، وقمت إلى البرك ...، وبات له ...، لحاف ومصقول ...

ومثال ذلك قول عوف بن الأحوص[٨]:

ومُستنبحٍ يخشى القواءَ ودونهُ ... من اللّيل باباً ظُلمةٍ وسُتُورُها
رفعتُ له ناري فلمّا اهتدى بها ... زجرتُ كلابي أن يهرَّ عقورها
فلا تسئليني وأسئلي عن خليقتي ... إذا ردَّعافي القدر مَنْ يستعيرها
وكانوا قُعُوداً حولها يرقُبُونها ... وكانت فتاةُ الحيِّ ممّن يُنيرُها
تَرَي أنَّ قدري لا تزالُ كأنَّها ... لذي الفروة المقرور أُمٌّ يزورها
مبرَّزةٌ لا يُجعلُ السِّترُ دونها ... إذا أُخمِدَ النَّيرانُ لاح بشيرها
إذا الشّول راحت ثم لم تفدِ لحمها ... بألبانها ذاق السِّنانَ عقيرها

فالذات هنا بمثابة عامل إنقاذ للآخر (المستنبح) إذ حولت خوله وجوعه وظلمة الليل من حوله إلى حالة إيجابية (الإطعام × الجوع، الضياء × الظلمة: رفعت له ناري). إذ تفتخر الأنا بالتزامها بنسق الكرم وإنقاذها المحتاج (المستنبح)، وقد دلت بعض الكلمات أو المفردات على ذلك النسق: (رفعت له ناري ...، أن قدري كأنها ...، مبرزة لا يجعل الستر دونها ...). كما يصور الشاعر حرص الجميع على إنضاج الطعام للمحتاج بتصويره لاهتمامهم بإنضاج القدر، حتى ان الفتاة المصونة ساهمت في ذلك ((وكانوا قعوداً حولها يرقبونها، فتاة الحي ممّن يُنيرها)).

كما نراهُ يُبين أهمية كرمه للآخر لأنه ضرورة ملحة للفقير والمستجدي: ((أن قدري كأنها، لذي الفروة المقرور أمٌّ يزورها))، ثم يصف الشاعر القدر والإبل التي تُنحر لإطعام هؤلاء.

وبهذا يشكل الكرم (لب العلاقة بين الذات والآخر، وهو ضابط السلوك بين الإنسان والإنسان، في الموقف من الغريب والمحتاج والضعيف، وفي السماحة والأريحية النفسية وقبول الآخر وفي حس الأمان والتأمين والتواصل الإنساني)[٩].

ويسير الشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلي[*] على النسق ذاته قائلاً[١٠]:

وطارق ليلٍ كنتُ حمَّ مبيته ... إذا قلَّ في الحي الجميع الرَّوافدُ
وقلتُ له: أهلاً وسهلاً ومرحباً ... وأكرمتُهُ حتى غدا وهو حامدُ

فنسق الأنا (الكريم يتمثل بما تقوم به الأنا من أقوال وأفعال إيجابية اتجاه الآخر المحتاج "طارق الليل"، ...): (كنت حمَّ مبيته ...، قلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبا، أكرمته حتى غدا ...). وهنا يضحي (أدب الولائم وعادة التزاور في الجاهلية يتناغمان مع أعراف عاشتها الجاهلية، وكانت بمثابة قوانين لا محيص عنها)[١١].

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

ومثل ذلك قول ربيعة بن مقروم الضبي(*)(١٢):

وأَضيافِ ليــلٍ فــي شــمالٍ عريَّــةٍ قريتُ من الكوم السَّــديفَ المرّعبــا

فالأنا الفردية هنا تقوم بإكرام الآخر المجموع في أحلك الظروف وهي الليلة الباردة بدليل: (قريت من الكوم السديف ...، أضياف ليل ...).

وقول المرار بن منقذ(*)(١٣):

لا تــــرى كلبـــــي إلّـــا آنســـاً إن أَتـــى خـــابطُ ليـــلٍ لـــم يهِـــرّ

إذ يجعل الشاعر من حواره مع زوجه وسيلة لإظهار التزام أناه بنسق الكرم، إلى درجــة ان الآخــر الحيواني (الكلب) لم يهر لأنه قد تعود على مجيء الضيوف بدليل قوله: (كلبي آنساً، إن أتى خابط ليل ...) .

ليس هذا فحسب الذي نجده عند الشعراء في موضوعه الكرم، بل يوصي الشعراء أبناءهم بضــرورة الالتزام بالنسق الكرمي، بإتباع نسق الآباء الذين ساروا على ذلك النسق، وبهذا يحافظ الالتزام بالنسق الكرمي على ديمومته وتأصيله وثباته، ذلك أن هدف الوصية هو الحفاظ على نسق الكرم واستمراريته بعد وفــاتهم، خاصة إذا عرفنا أن الوصية تصدر من أشخاصٍ عاشوا لفترات طويلة وقد خبروا الحياة وهــو مــا يجعــل الوصية تكتسب أهمية كبيرة بالنسبة للموصى له(١٤).

ومثال ذلك وصية عمرو بن الأهتم لأبنه ربعي بإكرام الضيف(١٥):

لقد أَوصــيتُ ربعــيَّ بــن عمــرو: إذا حزبـــت عشـــيرتك الأمـــورُ
بـــأَن لا تُفسِـــدَن مـــا قـــد ســـعينا وحفـــظ السُّـــورةِ العُليـــا كبيـــرُ
وإنَّ المجـــــدَ أَوَّلُـــــهُ وعـــــورٌ ومصـــــدرُ غبِّـــــهِ كـــــرمٌ وخيـــــرُ
وإنــك لــن تنــال المجــد حتّــى تجــودَ بمــا يضــنُّ بــه الضّــميرُ
بنفســك أَو بمالــك فــي أُمــورٍ يهــابُ ركوبهــا الــورع الــدَّثورُ
وجـــاري لا تُهينـــه وضـــيفي إذا أَمســـى وراء البيـــت كـــورُ

إذ تحافظ الأنا على نسقية الكرم الذي ظلت طوال حياتها ملتزمة به، إذ لم تكتفِ بالتزامها بنسق الكرم في حياتها، بل أضحت توصي الآخر/الابن بأتباعه والسير عليه، إذ توصلت الأنا بأن المجد لا يمكن تحقيقه إلا من خلال الكرم ليستمر النسق الكرمي متواصلاً بدون انقطاع كما جاء في بعض المفــردات (أوصــيت ربعي ...، إن المجد مصدر غبه كرم وخير، لن تنال المجد حتى تجود ...، وجاري لا تهنه وضيفي ...).

ويقول قيس بن خفاف(*) في وصيته لأبنه جُبيل(١٦):

والضّــيف أكرمــهُ فــإنَّ مبيتــهُ حــقٌ ولا تــكُ لُعنــةً للنُّــزَّلِ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

– الآخر ونسق الكرم

لم تكتفِ الأنا بسيرها على نسق الكرم، بل تعدى ذلك إلى نظرتها للآخر الذي يتحلى بتلك القيمة، ومن ذلك قول متمم بن نويرة(*) في رثاء أخيه مالك(١٧):

فتىً لـم يعـش يومـاً بـذمٍّ ولـم يـزل ... حواليـه ممَّـن يجتديـه ربـوعُ
لـه تَبَـعٌ قـد يعلـم النـاس أنَّـهُ ... علـى مـن يُـداني صـيِّفٌ وربيـعُ
وكـان إذا مـا الضَّـيف حَـلَّ بمالـكٍ ... تضـمَّنهُ جـارٌ أَشـمُّ منيـعُ
لعمـري لـنعم المـرءُ يطـرقُ ضـيفُهُ ... إذا بـانَ مـن ليـل التِّمـام هزيـعُ
بـذولٌ لمـا فـي رحلـهِ غيـرُ زُمَّـحٍ ... إذا أَبـرز الحُـور الرَّوائـع جـوعُ
إذا الشَّمسُ أَضحت فـي السّـماء كأنّهـا ... مـن المحـل حُـصٌّ قـد عـلاهُ ردوعُ

إذ يضحي الآخر/المرثي هنا إيجابياً في عين الشاعر نتيجة سيبره على نسق الكرم، الأمر الذي يجعل الشاعر يخلد فعله الكرمي في مساعد الآخر الفقير، فمثلما حافظ المرثي على الآخر من خلال مساعدته لـه، فإن الأنا/الشاعر تحاول تخليده بذلك الرثا من خلال استرجاع نسقية كرمه: (فتى لم يعش يومـاً...، حواليـه ممن يجتديه...، صيف وربيع....، إذا ما الضيف حلَّ...، تضمنه جار أشم منيع ...).

وواضح من الأبيات السابقة مدى التزام الآخر بنسقية الكرم ومساعدته المحتاجين خاصة في أوقـات القحط. ونجد ذلك النسق في أكثر من موضع في المفضليات(١٨).

٢– نسقية الشجاعة والبطولة

كانت الشجاعة في عصر ما قبل الإسلام نسقاً ثقافياً يُسير المجتمع، ذلك ان طبيعة الحيـاة فـي ذلـك العصر تُحتِّم على الفرد والمجتمع بشكل عام أن يسير حسب ذلك النسق.

– الأنا ونسق الشجاعة

التزم الكثير من شعراء المفضليات بنسق الشجاعة، وقد أتضح ذلك من فخرهم بذواتهم الفردية، وعلى الرغم مما في الحرب من سلبيات، إلا أنها ((مرآة صادقة تعكس أحوال العرب وعاداتهم، وشأنهم في الحرب والسّلم، والاجتماع والفرقة، والعداء والأسر، وهي – أيضاً – مرآة صادقة تظهر فضائلهم وشيمهم، كالـدفاع عن الحريم، والانتصار للعشيرة، وحماية الجار، والصبر في القتال، وما إلى ذلك مما نراه واضحاً في تلـك الأيام))(١٩).

يقول ضمرة بن ضمرة النهشلي مفتخراً بشجاعته[٢٠]:

ومُشـــعلةٍ كـــالطّير نهنهـــتُ وردهـــا ... إذا مـــا الجبـــانُ يـــدَّعي وهـــو عانـــدُ
عليهـــا الكمـــاةُ والحديـــد فمـــنهم ... مصـــيدٌ لأطـــراف العـــوالي وصـــائدُ
أُذيـــقُ الصّـــديق رأفتـــي وإحـــاطتي ... وقـــد يشـــتكي منّـــي العـــداةُ الأباعـــدُ
وذي تِـــــرةٍ أَوجعتُـــــهُ وســـــبقتُهُ ... فقصَّـــر عنّـــي ســـعيُهُ وهـــو جاهـــدُ
يرانـــــي إذا لاقيتُـــــه ذا مهابـــــةٍ ... ويقصُرُ عنّـــي الطّـــرف والوجـــهُ كامـــدُ
وقـــرنٍ تركـــتُ الطَّيـــر تحجُـــلُ حولـــهُ ... عليـــه نجيـــعٌ مـــن دمِ الجـــوف جاســـدُ

إذ تعلن الأنا عن نسقها الحربي/الشجاعة من خلال التركيز على الأفعال الماضية والمضارعة للدلالة على التزامها بنسق الشجاعة في الماضي والحاضر ..(ومشعلة ....، نهنهت وردها، وذي ترة أوجعته وسبقته، وقرن تركت الطير ....، يشتكي من العداة، وذي كرة يراني ...). ومن هنا نرى ان نسق الشجاعة والقوة تحتل موقعاً في صميم المجتمع الجاهلي فمن خلالها تثبت الذات وجوها، وأضحت حلماً حفز الجاهلي للبحث عن الصلابة والقوة والتي بدونها لا تشعر الذات بوجودها[٢١].

ويتعالى صوت الفخر بالذات في قول عامر بن الطفيل[*][٢٢]:

لقـــد علمـــت عليـــا هـــوازن أَنَّنـــي ... أَنـــا الفـــارسُ الحـــامي حقيقـــة جعفـــرِ
وقـــد علـــم المزنـــوقُ أَنّـــي أَكـــرُّهُ ... علـــى جمعهـــم كـــرَّ المنـــيح المُشـــهّرِ
إذا أزورَّ مـــن وقـــع الرِّمـــاح زجرتُـــهُ ... وقلتُ لـــه أرجـــع مُقـــبلاً غيـــرِ مُـــدبرِ
وأَنبأتُـــــهُ أَنَّ الفـــــرار خزايـــــةٌ ... على المرء ما لـــم يُبـــلِ جهـــداً ويُعـــذرِ

ج

فالأنا/الشاعر ملتزمة بنسق الشجاعة، بدلالة اعتراف الآخر الجمعي/عليا هوازن بذلك بسبب تمسك الأنا بالنسق: (علمت هوازن أنني الحامي ...)، كما يتجلى التزام الشاعر بنسق البطولة من خلال حواره مع فرسه: (علم المزنوق أني أكره ...، قلت له أرجع مقبلاً ...، أنبأته ان الفرار خزاية، ....).

ويسير الشاعر المزرد بن ضرار الذبياني[*] على وفق نسق الشجاعة السائد قائلاً[٢٣]:

فقـــد علمـــت فتيـــانُ ذبيـــان أَنَّنـــي ... أَنا الفـــارس الحـــامي الـــذِّمار المقاتـــلُ
وأَنّـــي أَردُّ الكـــبش والكـــبش جـــامحٌ ... وأَرجـــع رمحـــي وهـــو ريَّـــان ناهـــلُ

جج ج

تتمسك الأنا بنسقية الشجاعة والبطولة جعلت الآخر (فتيان ذبيان) على يقين من ذلك: (علمت فتيان ...، أنني أنا الفارس الحامي، وإني أرد الكبش ...، وأرجع رمحي وهو ريان ...)

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

ونتيجة امتثال الجاهلي لنسق الحرب، أخذ يفتخر بفرسه وسلاحه لأنهما من يجعلانه يحافظ على تمسكه بالنسق الحربي/الشجاعة، إذ يمثلان عدّة الفارس الحربية، وهما من يجعلانه بطلاً، أي أنّ الأشداء يبطلون عنده، أو هو الشجاع الذي تبطل شجاعته فلا يكترث لها[٢٤]. فـ((الخيل من أهم معدات الحرب التي كان يعدها الفارس الجاهلي في غارته وغزواته، فهي عنصر لا يمكن الاستغناء عنه، وكثيراً ما كانت نتائج الحرب تتوقف عليها ...))[٢٥] مما جعلهم يعتزون بها، ومن ذلك قول حاجب بن حبيب الأسدي[*] في معرض حديثه مع زوجه التي لامته على عدم بيعه لفرسه على الرغم من ثمنه العالي[٢٦]:

فقلتُ ألم تعلمي أنَّهُ ... كريم المكبَّة مبدانها
كميتٌ أُمرَّ على زفرةٍ ... طويل القوائم عُريانُها
تراهُ على الخيل ذا جُرأة ... إذا ما تقطّع أقرانها
وهُنَّ يردنَ ورود القطا ... عمان وقد سُدَّ مُرَّانُها
طويل العنان قليل العثا ... ر خاظي الطّريقة ريّانها
جج

فالشاعر في تصويره صفات الفرس لزوجه يدل على تجربته في المعركة: (كريم المكبة ...، كميت أمر ...، طويل القوائم ...، تراه على الخيل ذا ...، طويل العنان، قليل العثار، خاظي ...).

ويتردد هذا في أكثر من موضع في المفضليات[٢٧].

- الآخر ونسق الشجاعة

لقد أثر نسق الشجاعة والبطولة على الذات/الشاعر فجعلها محبة ومفتخرة بذلك النسق ومتحليه به مثلها أثر في الوقت ذاته على نظرتها للآخر الذي يجب أن يتحلى به أيضاً.

من شواهد ذلك قول تأبط شراً[*] باكياً على البطل الشجاع الذي كان يستغيث به[٢٨]:

لكنّما عولي إن كنتُ ذا عولٍ ... على بصيرٍ بكسب الحمد سبّاق
سبّاق غاياتِ مجدٍ في عشيرته ... مُرجِّع الصَّوت هدّاً بين أرفاق
عاري الظَّنابيب، مُمتدّ نواشرُهُ ... مدلاجِ أدهم واهي الماء غسّاق
حمَّال أكويةٍ شهَّادِ أنديةٍ ... قوَّالِ مُحكمةٍ جوّاب آفاق
فذاك همِّي وغزوي أستغيثُ به ... إذا استغثت بضافي الرَّأس نغَّاق

إذ يضحي الآخر/المرثي إيجابياً في نظر الشاعر كونه كان ملتزماً بنسق الشجاعة والبطولة، خاصة وأنها قيمة ضرورية للشعراء الصعاليك نتيجة تمردهم على النظام القبلي واتخاذهم السيف والقوة كوسيلة لأخذ الحقوق المسلوبة في نظرهم.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤(أ) - المجلد ٤٧ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

وبهذا ((شكّلت البطولة ونسقها ملمحاً قوياً حاضراً بكثافة في شعر المفضليات، وإذا كانت أيّام العرب وحروبها كثيرة، فإن الشعر في هذه الأيام هو تأريخ لها، بل إعادة إنتاج لها مرّة أخرى، فالنصر لا يكون نصراً إلا بالشعر، والهزيمة قد تُنسى إذا ما أعاد الشعر إنتاج حالتها وحوّلها إلى انتصار شعري))[٢٩].

٣- نسقية الوفاء

يعدُّ الوفاء من القيم الإيجابية التي أصبحت نسقاً يتحتم على الجاهلي الاستجابة له، وإلا أستحق كل من يشذ عليه التحقير والذم، ويضحي هذا الخارج على نسقية الوفاء الآخر يضعه المجتمع خارج سياق الانتماء وهو يمثل النقيض أو الآخر المضاد بما يؤمن به المجتمع[٣٠].

- الأنا ونسق الوفاء

تفتخر الذات بالتزامها بقيمة الوفاء التي تعدّ نسقاً ثقافياً يتحكم في الفرد والمجتمع، إذ يضفي على تلك الذات المقبولية وهو الذي يحُدد القيم الاجتماعية التي تمنح الفرد والمجتمع على السواء الجمالية والمقبولية لدى الآخرين، لسبب واحد وهو أن تلك الذات داخلة في النسق الجمعي الذي يُحبب قيمة الوفاء في المجتمع.

من ذلك قول المثقب العبدي[*] مؤكداً على قيمة الوفاء ومحذراً من ينكث الوعد بعد إبرامه[٣١]:

لا تقولنَّ إذا ما لم تُرِد ... أن تُتمَّ الوعد في شيءٍ "نعم"
حسنٌ قولُ "نعم" من بعد "لا" ... وقبيحٌ قول "لا" بعد "نعم"
إنَّ "لا" بعد نعم فاحشةٌ ... فبـ"لا" فأبدأ إذا خفت النّدم
فإذا قُلتَ "نعم" فأصبر لها ... بنجاح القول إنَّ الخلفَ ذمُّ

يفتتح الشاعر أبياته بأسلوب النهي عن أخلاق الوعد (لا تقولن ...) مؤكداً على سلبية إخلاف الوعد من خلال بعض المفردات او الكلمات: (قبيح قول لا بعد نعم، أن لا بعد نعم فاحشة، أن الخلف ذم) وهذا يؤكد التزام الأنا بنسق الوفاء بالوعد، بدليل أنمه يحث الآخرين على الالتزام بذلك النسق: (لا تقولن ...، فبلا فبدأ...).

إذ يؤكد الشاعر على ضرورة الوفاء بالوعد، والالتزام بالنسق المهيمن والمتمكن من عقول وأذهان المجتمع الجاهلي.

ومن صور الافتخار الجماعي بقيمة/نسقية الوفاء كونها نسقاً يُسير أفراد القبيلة أو القوم جميعاً قول سويد بن أبي كاهل مفتخراً بقومه بني بكر بن وائل[٣٢]:

من بني بكر بها مملكة ... منظر فيهم وفيهم مستمع

. . . . . .

لا يخاف الغدر من جاورهم ... أبداً منهم ولا يخشى الطَّبع

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) - المجلد ٤٧ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

فالنحن الجمعية هنا (بني بكر) تسير كلها على نسق واحد وهو الوفاء وعدم الغدر، وهـذا يعنـي أن المفعول النسقي سارياً في بني بكر وهذا ما نلاحظه في الأفعال المضارعة المسبوقة بلا النافية: (لا يخـاف الغدر من جاورهم، لا يخشى ....).

ومنه أيضاً قول راشد بن شهاب اليشكري(*) مفتخراً بالذات الجماعية وابتعادهم عن الغدر(٣٣):

فـلا تحسـبنَّا كـالعمور وجمعنـا فنحنُ وبيت اللهِ أدنـى إلـى عمـرو

جميعاً ولسـنا قـد علمـتَ أُشـابةً بعيدين من نقص الخلائـق والغـدر

فالشاعر ينفي عن قومه كل ما هو خارج النسق: (نقص الخلائق والغدر) وهذا يدل على أن الالتـزام بالنسق أخذ يتحكم بالقوم.

فهو يفتخر بأن قومه يحيون على وفق النسق السائد لا يخرجون عنه، لأنهم بعيدون عن الغدر الذي يقع خارج النسق، بل كسراً له.

- الآخر ونسق الوفاء

لا يكتفي الشاعر بتصوير التزام (الأنا) بالنسق السائد (الوفاء) بل يؤكد على التزام الآخر به أيضاً ومن ذلك قول المسيب بن علس في مدحه للقعقاع بن زرارة(٣٤):

أَنـتَ الـوفيُّ فمـا تُـذمُّ وبعضـهم تُـودى بذمّتِـهِ عُقـابُ مـلاعِ

فالشاعر يخاطب أخره الإيجابي (الممدوح/أنت الوفي فما تذم). وهذا يعني أن عدم ذم الممدوح سـببه التزامه بالنسق.

ثانياً: الشذوذ عن النسق القيمي

لاحظنا مدى هيمنة النسق القيمي على المجتمع بشكل عام والشعراء على وجه الخصـوص وتحكمـه بهم، ولهذا رأيناهم يسيرون على وفق ذلك النسق ويفتخرون به، ويشيدون بالآخر الذي يلتزم بتعاليم النسـق، سواء كان تلك الإشادة في المدح أم الرثاء، غير أن هذا الالتزام قابله شذوذ أو خروج بعض أفراد المجتمـع على العادات والأعراف التي أصبحت أنساقاً مهيمنة فكان الخروج على تلك القيم الإيجابية التي تعارف عليها العرب كالكرم والشجاعة والوفاء، ويمثل كسراً وتمرداً على الأنساق المهيمنة، ومن مظاهر ذلك التمرد:

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) - المجلد ٤٧ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

١- البخل :

والبخل ضد الكرم فهو ضد النسق الشائع، وكان الجاهليون يخشون من أن يُنعتوا بالبخل ويشتهروا به بين الناس، وهذا دليل على أن صفة البخل كانت ذميمة عندهم، حتى وردت بعض الأمثال تدل على ذلك(٣٥).

وإذا جئنا إلى شعر المفضليات نجد ذم بعض الشعراء للبخل، من ذلك قول عمرو بن الأهتم في معرض حديثه مع زوجه التي تحثه على إمساك المال(٣٦):

ذريني فإنّ البخل يا أُمَّ هيثم ... لصالح أخلاق الرجال سروقُ
وإنّي كريمٌ ذو عيالٍ تَهَمّنَي ... نوائب يفشى رزؤها وحقوقُ

إذ يجري الشاعر حواراً بينه وبين زوجه بقوله (ذريني) ويضمر الشاعر في هذا الحوار نسقاً ثقافياً يعلي من الذات بسبب التزامها بالكرم وبعدها عن ما هو ضد (البخل): (ذريني، فإن البخل لصالح أخلاق الرجال تروق، وإني كريم ...). وهذا يجعل المرأة بطريقة مسكوت عنها تمتاز بالبخل فهي ضد ما يؤمن به الشاعر.

ومن ذلك قول علقمة بن عبدة مشيداً بالكرم ذاماً البخل(٣٧):

والجود نافيةٌ للمال مهلكةٌ ... والبخلُ باق لأَهليه ومذمومُ
والمالُ صوف قرار يلعبون به ... على نقادته وافٍ ومجلومُ

فعلى الرغم من أن الجود والعطاء يقضي على المال وقد يتسبب في فقر صاحبه، لكنه يكسب صاحبه القبول والمكانة لأنه يتفق مع ما تريده الثقافة على عكس البخل.

ويقول ذو الأصبع العدواني مفتخراً بشجاعته وكرمه، فلم يكن في يومٍ ما بخيلاً أو جباناً(٣٨):

إن تزعُما أنّني كبرتُ فلم ... أُلفَ بخيلاً نِكْساً ولا وَرَعَا

فالذات متمسكة بنسقية الكرم على الرغم من كبر سنها وفي مقابل ذلك نراها تنفي صفة البخل عنها.

ويقول المرقش الأكبر في هجائه قوماً بخلاء، ونافياً عن قومه هذه الصفة(٣٩):

لسنا كأَقوامٍ مطاعمُهُم ... كسب الخنا ونهكة المحرم
إنْ يُخصِبوا يعيوا بخصبهمُ ... أو يُجدبوا فهم به أَلأَم
عامَ ترى الطَّير دواخل في ... بيوت قومٍ معهم ترتم
ويخرجُ الدُّخان من خلَلِ ... سّترِ كلون الكودن الأَصحم

إذ يرسم الشاعر هنا صورتين متناقضتين، صورة الذات المتلزمة بالنسق الكرمي (لسنا كأقوام مطاعمهم كسب ....)، وصورة الآخر الخارج عن هذا النسق (البخلاء) (مطاعم كسب الخنا، نكهة المحرم، أن يخصبوا ....).

٢- الجُبن

والجُبن عكس نسق الشجاعة الذي كان مُهيمناً على عقول وعادات أفراد المجتمع الجاهلي، وقد رأينا مدى استجابة الكثير من شعراء المفضليات إلى هذا النسق، وكيف كانوا يفخرون بشجاعتهم الفردية أو الجماعية كدليل على مدى التزامهم بذلك النسق، إذ كانت الحياة الجاهلية وطبيعة العلاقات الاجتماعية والقبلية تُحتم عليهم الالتزام به، إلا أنّ البعض شذَّ عن ذلك الالتزام، وسار بعكسه، إذ نرى في المفضليات بعض الإشارات إلى تلك الصفة السلبية الجبن المضادة لنسق الشجاعة، من ذلك قول عامر بن الطفيل في حديثه مع فرسه نافياً صفة الجبن عن ذاته(٤٠):

فبئس الفتى إن كُنتُ أَعور عاقراً جباناً فما عُذري لدى كُلَّ محضرِ

٣- الغدر والخيانة

وهي صفة يشمئز منها العربي، لأنها ضد نسقية الوفاء المتعارف عليه في المجتمع، فالغدر من الصفات المذمومة تجرد صاحبها من الكمال الإنساني، ويغدو غير مرحباً به، ولهذا كانت العرب ترفع لواءً للغادر في أسواقها ونواديها تشهيراً به وعقوبة نفسية له كي لا يقع في تلك الصفة مرّة أخرى(٤١). ولهذا كان الشعراء يهجون مَنْ أتصف بتلك الصفة لأنها تعد خروجاً عن النسق المتعارف عليه.

ومن ذلك قول يزيد بن الحذاق في هجائه للنعمان(٤٢):

نعمانُ إنّك خائنٌ خدعٌ يُخفي ضميركَ غير ما تُبدي

فعلى الرغم من قوة الملك وجبروته في عين الآخر/الشاعر إلا أنه يهجوه كروجه عن سلم القيم المتعارف عليها: (نعمان إنك خائن، خدع، ....).

ومن ذلك قول الحادرة ينفي عن نفسه صفة الغدر(٤٣):

أَسُميَّ ويحكِ هل سمعتِ بغدرةٍ رُفع اللِّواء لنا بها في مجمعِ

ويقول سويد بن أبي كاهل(٤٤):

لا يخافُ الغدر من جاورهم أَبداً منهم ولا يخشى الطَّبع

الشاعر يجعل هؤلاء القوم عنصر اطمئنان وسكينة للآخرين: (لا يخاف الغدر من جاورهم، لا يخشى الطبع).

وهناك بعض الشعراء مَنْ ينفي عن نفسه صفة الغدر للدلالة على التزامه بنسق الوفاء، كما رأينا سابقاً.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) - المجلد ٤٧ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

الخاتمة:

تمخض البحث في (نسقية القيم في شعر المفضليات بين الالتزام والشذوذ) عن جملة من النتائج نوجزها بما يلي:

* إن الالتزام بالنسق القيمي هو السائد وهو يمثل النسق الأكثر شيوعاً في الجاهلية لأنه ينقذ الآخر كما يعطي قدراً أو مكاناً للذات، إذ صوّر شعراء المفضليات هذا الالتزام من خلال القيم الإيجابية كالكرم والشجاعة والوفاء، التي تحلّت بها الأنا الفردية والجماعية (القبلية) مما أتضح في فخر الشعراء الذاتي والقبلي.

* لم يكن الالتزام على صعيد الانا فحسب بل أشاد الشعراء بالآخر سواء أكان ممدوحاً أم مرثياً، للتأكيد على أن هذا النسق كان متجذراً ومتأصلاً لدى العربي لا يخرج عنه طيلة حياته، إذ يبقى الميت كأنه يتمتع بحياته جراء ما التزم به من قيم إيجابية كالكرم والشجاعة وبذلك لا يمثل الموت نهاية حياته فهو بذلك تبدأ له حياة أخرى جراء تخليد الشعراء لما اتصفوا به من التزام بأنساق المجتمع.

* إن الالتزام بالنسق القيمي وإن كان سائداً إلا أن هناك من سار عكس هذا النسق مما نستشفه من تنفير الشعراء وذمهم للصفات السلبية كالبخل والجبن والغدر. أن مجرد الإشارة لهذه الصفات تعني أن هناك من خرج عن النسق السائد، وهذا الخروج على الرغم من قلته فإنه يدل على ان بعض الناس من يتمرد على القيم والأنساق الإيجابية فيذهب إلى مثل تلك الصفات السلبية.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٧ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٢

الهوامش:

١- القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال المفضليات والأصمعيات، صلاح الدين أحمد دراوشة: ، ص.١٣٠

٢- المصدر نفسه، ص.١٢٩

٣- ينظر: الشخصية في قصص الأمثال العربية (دراسة في الأنساق الثقافية للشخصية العربية)، ناصر الحجيلان: ، ص.٣٢

٤- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: عبد الفتاح أحمد يوسف، ص١٥٢-١٥٣.

٥- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية، محمد توفيق أبو علي ص.٤٨٨

٦- المفضليات: المفضل بن محمد بن يعلى الضَّبِّي ، ص١٢٦-١٢٧. المستنبح: الرجل الذي يتشبه بصوت الكلاب لتجيبه فيضيفه أصحابه. العرنين: أول الليل، البرك: الأبل، الهواجد: النيام، الهواجب: الإبل العظيمة الأسمنة، الفينق: الفحل من الإبل، ثرة: غزيرة الدم، الزاهق: الثمين

٧- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية، ص.٦٧

٨- الجود والبخل في الشعر الجاهلي: محمد فؤاد نعناع، ص.١٠٨

٩- المفضليات: مصدر سابق، ص١٧٦-١٧٧.

١٠- المصدر نفسه، ص.٣٢٦

١١- المصدر نفسه، ص٣٧٦. والشمال: الريح، والعرية: الباردة، والكوم: جمع كوماء وهي العظيمة السنام، والسديف: شحم السنام، والمرعب: المقطع.

١٢- المصدر نفسه، ص٨٨. وخابط ليل: الرجل الذي يسير في الليل.

١٣- ينظر: الوصايا الأدبية: عبد الله بهلول: ، هامش ص.٥٢

١٤- المفضليات: مصدر سابق، ص٤٠٩-٤١٠. والورع: المتحرج، والدثور: المتكاسل، والكور: كور الرحل المصنوع من الخشب.

١٥- المصدر نفسه، ص.٣٨٤

١٦- المصدر نفسه، ص٢٧٢-٢٧٣.

١٧- ينظر: المفضليات: المصدر نفسه، ص٦٢-٦٣، ص٢٦٥-٢٦٧، ص٢٧٣-٢٧٤.

١٨- أيام العرب في الجاهلية: محمد أحمد جاد المولى وزميلاه، ص.٧١

١٩- المفضليات: مصدر سابق، ص٣٢٥-٣٢٦. والترة: الثأر، كامد: أسود، الجاسد: اللازق.

٢٠- المصدر نفسه، ص٣٦١-٣٦٢. المزنوق: اسم فرسه، المنيح: قدح تكثر به القداح لا حظ له.

٢١- المصدر نفسه، ص.٩٥

٢٢- يُنظر: لسان العرب مادة (بطل)، ١٣/٥٩.

٢٣- القيم الانسانية في الشعر الجاهلي من خلال المفضليات والاصمعيات: صلاح الدين أحمد دراوشة: مصدر سابق، ص.١٧٧

٢٤- المفضليات: مصدر سابق، ص٣٦٩. كريم المكبة: المقبل على الأعداء، الزفرة: الواحدة من الزفير، والمران: الرماح.

٢٥- ينظر المفضليات: مصدر سابق، ص٤١٣-.٤١٤

٢٦- المصدر نفسه، ص٢٩. وينظر فيه شعر متمم بن نويرة، ص٢٦٥-.٢٦٦

٢٧- المرأة في شعر المفضليات والأصمعيات الجاهلي: لارا عبد الرؤوف أمين شفاقوج ، ص.١٤٦

٢٨- القيم الانسانية في الشعر الجاهلي من خلال المفضليات والاصمعيات: مصدر سابق، ص.١٩٦

٢٩- ينظر: مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في كتاب المفضليات: ماهر أحمد علي المبيضين، عيسى عودة برهومة ، ص١٠-.١١

٣٠- المفضليات: مصدر سابق، ص.٢٩٣

٣١- المصدر نفسه، ص.١٩٤

٣٢- المصدر نفسه، ص٣١١. والعمور: جمع عمرو، الأشابة: المختلطون.

٣٣- المصدر نفسه، ص٦٣. والملاع: اسم مكان ينسب إليه العقبان.

٣٤- ينظر: صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية: محمد توفيق أبو علي، ص٤٧٢-.٤٧٣

٣٥- المفضليات: مصدر سابق، ص١٢٥-١٢٦.

٣٦- المصدر نفسه، ص٤٠١. والقرار: الغنم الصغيرة، والمجلوم: المجزوز.

٣٧- المصدر نفسه، ص١٥٤. والنكس: غير الجيد، الورع: ضد الشجاعة وهو الجبان.

٣٨- المصدر نفسه، ص٢٤٠. الخنا: الفساد، ترتم: الأكل، الكودن: الذي يسير ببطأ، الأصحم: سواء فيه صفرة

٣٩- المصدر نفسه، ص.٣٦٢

٤٠- ينظر: القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي: ماهر أحمد وعيسى عودة، ص١٩٦-١٩٧، مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في كتاب المفضليات، ص١٩-.٢٠

٤١- المفضليات: مصدر سابق، ص.٢٩٦

٤٢- المصدر نفسه، ص.٤٥

٤٣- المصدر نفسه، ص.١٩٤

قائمة المصادر:

أولاً: الكتب

١- أيام العرب في الجاهلية: محمد أحمد جاد المولى وزميلاه، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٩٨٨.

٢- الجود والبخل في الشعر الجاهلي: محمد فؤاد نعناع، دار طلاس للدراسات والنشر، ط١، ص١٩٩٤م.

٣- الشخصية في قصص الأمثال العربية – دراسة في الأنساق الثقافية للشخصية العربية): ناصر الحجيلان، المركز الثقافي العربي والنادي الأدبي بالرياض، ط١، ٢٠٠٩م.

٤- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية: محمد توفيق أبو علي، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط٣، ٢٠٠٧م.

٥- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم (ابن منظور)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦- لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: عبد الفتاح أحمد يوسف، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان، مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – لبنان، ٢٠١٠م.

٧- المفضليات: المفضل بن محمد بن يعلى الضَّبي، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، القاهرة، دار المعارف، ط١٠، ٢٠١٠م.

٨- الوصايا الأدبية (إلى القرن الرابع هجرياً، مقاربة أسلوبية حجاجية): عبد الله البهلول، الانتشار العربي، بيروت – لبنان، دار محمد علي تونس، ط١، ٢٠١١م.

ثانياً: الدوريات

- مظاهر من الحياة الثقافية والاجتماعية في كتاب المفضليات: ماهر أحمد علي المبيضين، وعيسى عودة برهومة، مؤتة/ الأردن للبحوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٢٢، العدد (١)، ٢٨ شباط ٢٠٠٧م.

ثالثاً: الأطاريح

١- القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال المفضليات والأصمعيات: صلاح الدين أحمد دراوشة، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك – كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، الأردن، ١٩٩٦م.

٢- المرأة في شعر المفضليات والأصمعيات الجاهلي (دراسة نقدية): لارا عبد الرؤوف أمين شفاقوج، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها – كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، كانون الثاني ٢٠٠٨م.